# أزمة اللغة، وثوابت الهوية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (واقعية التاريخ، وصراع الذاكرة الوطنية)

# The crisis of language and the constants of identity in Algerian literature written in French (between the realism of history, and the struggle of National memory)

د. عبد الله بن زهية*
المركز الجامعي (تيبازة)/الجزائر
benzahia.abdallah@cu-tipaza.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/06 تاريخ القبول: 2024/05/18

**الملخص:**

تعد قضية الهوية من أهم القضايا المتعلقة بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، والذي تزامنت فترة ظهوره مع الفترة الاستعمارية حيث كانت اللغة العربية مغيبة بفعل ممارسات الاستعمار، فلم يكن لدى المثقف الجزائري بديل عن اللغة الفرنسية لجعل صوته مسموعا للتعبير عن معاناته، وتقديم نفسه وثقافته ومجتمعه لإثبات مقومات وجوده، والإشارة إلى حدود هويته التي كانت حدودا ضيّقة تحت ضغط المستعمر، حيث تأتي هذه الدراسة كمقاربة موضوعاتية لثيمات السرد وفق منهج تحليلي نحاول من خلاله كشف العلاقة بين الكتابة وحقيقة الواقع التاريخي والثقافي للمجتمع الجزائري، والإجابة عن مجموعة من الإشكاليات التي من أهمها: كيف استطاع المثقف الجزائري تقديم نفسه وثقافته بلغة الآخر؟ وكيف استثمر الأدب الجزائري لغة المستعمر كأداة خدمت الهوية والقضية الوطنية؟

الكلمات المفتاحية: **الأدب ؛ الهوية ؛ المرجعية الثقافية ؛ المستعمر ؛ الذاكرة الوطنية.**

## Abstract

The issue of identity is one of the most important issues related to Algerian literature written in French, which coincided with the colonial period, when the Arabic language was absent due to colonial practices, the Algerian intellectual had no alternative to the French language to make his voice heard to express his suffering, to present himself, his culture and society to prove the elements of his existence, and to point to the boundaries of his identity, which were narrow boundaries under the

* المؤلف المرسل: **بن زهية عبد الله**، الإيميل: **benzahia.abdallah@cu-tipaza.dz**

pressure of the colonizer, This study is an thematic approach to narrative themes according to an analytical approach through which we attempt to uncover the relationship between writing and the reality of the historical and cultural reality of Algerian society, and to answer a group of problems, the most important of which are: How was the Algerian intellectual able to present himself and his culture in the language of others? and How did Algerian literature exploit the colonizer's language as a tool that served identity and the national cause?
**Keywords**: **literature; identity; cultural reference; colonizer; National memory.**

**مقدمة:**

لم تكن نشأة الأدب الجزائري مثل نظيراتها في الوطن العربي، فقد كتب في بداياته المبكرة بالفرنسية نتيجة للسياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، والتي أقرت مبدأ تدريس اللغة الفرنسية كلغة رسمية أولى بدلا من العربية التي كان من المفترض أن تكون اللغة الأولى للاعتبارات التي ميزت الجزائر قبل دخول الاستعمار الفرنسي، فظهرت الكتابات الإبداعية باللغة الفرنسية كنتيجة حتمية، وظهرت معها فيا بعد قضية الهوية ومشكلة التصنيف التي طبعت هذا الأدب، فمشكلة هذا الأدب الذي رأى بعض الدارسين أنه نتج عن التأثر الكبير لكتابه بالثقافة الأجنبية حيث يقول عبد المالك مرتاض في هذا الصدد :" أن هؤلاء الكتاب الجزائريون في الغالب كانوا يكتبون باللغة الفرنسية لإعجاب الكبير بالحضارة الفرنسية بشكل خاص والحضارة الغربية بشكل عام، جاهلين بالتاريخ العربي وغير مطلعين على سمات الحضارة الإسلامية." (مرتاض، د.ت)

وإذا عدنا إلى السياق التاريخي، نجد أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية يمثل مسرحا عكس صورة التطورات التي ميزت الساحة الأدبية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية وما بعدها كما صور الثوابت السياسية والاجتماعية والثقافية حيث كان شاهدا على فترات من تاريخنا السياسي والثقافي والاجتماعي منذ بداية الاستعمار الفرنسي للجزائر عام 1830، كما خلّد ظرفا تاريخيا كان أكبر من مجرد الرغبة في الكتابة باللغة العربية.

لقد كان للاستعمار الفرنسي في الجزائر تأثير على المجتمع الجزائري من خلال الممارسات التي مارسها على الشعب، خاصة فيما يتعلق بالفكر والدين واللغة كأحد أهم الأساسيات التي تشكل الهوية الوطنية، ومنذ دخول فرنسا إلى الجزائر، شنت حرب إبادة على الشعب الجزائري فكانت استراتيجية الاستعمار تقوم أساسا على حرب إبادة على الشعب الجزائري، وقد عملت على تجسدها وفق مراحل:

– إبادة العنصر البشري للشعب الجزائري من خلال حرب مباشرة وشاملة لا هوادة فيها.

– الاستيلاء على الأرض، وإعادة بنائها من قبل العنصر البشري الأوروبي على حساب شعبها الأصلي في محاولة لتحويل طابعها الإنساني من الطابع العربي الإسلامي إلى الطابع المسيحي الأوروبي.

– هدم المباني ذات الامتداد الثقافي والروحي، وكذا الأنظمة الاجتماعية، والتقاليد التي كانت موجودة قبل الغزو.

رابعا: استبدال المباني بأخرى تستمد عناصرها من المباني الثقافية والروحية والتقاليد الاجتماعية الأوروبية المسيحية." (منور، 2007)

وهكذا فقد كان الأدب الجزائري عموما، والرواية على وجه الخصوص رهينة لهذا الواقع الذي سيطر عليه الاستعمار لأكثر من قرن، ورسمه بكل ألوان الظلم والبؤس ، "وإذا وجدنا تاريخيا أنّ بعض الدول العربية قد استفادة من الاستعمار عندما نقل المطبعة، والصحف والمجالس العلمية وما إلى ذلك فإن الأمر في الجزائر كان عكس ذلك تماما، ذلك أنه لم يأت لنشر الحضارة بل كان غزوا ثقافيا بنفس المعدات التي جلبها الاحتلال في عنفه وانتقامه." (سعدالله، 1985)

وبما أن اللغة الفرنسية هي لغة المستعمر القوي، فقد نتج عن ذلك أشياء، حيث وجد الجزائريون أنفسهم أمام شيئين: إما أن يحصلوا على علم بسيط ومحدود يعطى بالطريقة البدائية القديمة التي لا توفر لصاحبها أي تقدم أو فوائد أو تقدم في السلم الاجتماعي، أو علم يدرس في مدارس منظمة وحديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تواكب التقدم والحضارة الحديثة، لذلك اختاروا الثاني– إذا كان هناك خيار–"وفي حقيقة الواقع، قبلوا تعلم اللغة الفرنسية، وهوما جعلها لغة التعبير والكلام والثقافة والعلوم." (الكيلاني، 1958) ، ونجد جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) معلقا على هذه السياسة فيقول: "لكن على أي حال، أردنا أن نجعل إخواننا المسلمين أميين، وعدد الجزائريين الأميين اليوم هو ثمانين في المائة، وكان من الأسهل لو لم نمنعهم من استخدام لغتنا لكن الحقيقة هي أن متطلبات النظام الاستعماري لمحاولة سد الطريق أمام العرب تتطلب ذلك وبما أن المطالب الوطنية في أوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة، فقد منع الجزائريون من استخدام لغتهم الخاصة، فالعربية في الجزائر لغة أجنبية منذ عام 1830." (الزاوي، 1984)

لقد كانت سياسة التعليم الاستعماري ذات طبيعة عنصرية، وكذلك الجهاز الكبير الذي أنتجها والذي بدوره يعيد إنتاجها في كل مرة –أو هكذا كان يأمل–، فلم تفتح المدرسة الاستعمارية أبوابها لجميع التلاميذ، بل كان هناك تمييز وفصل بين الأصول والفروع، وكانت الجناية في عدّم الالتحاق إلى المدرسة إما الأصل الجزائري، أو التوجه العقدي. "وقد عملت الإدارة الفرنسية بقاعدتين كان لهما الدور الرئيسي في نشر "التعليم" في دوائر ضيقة:

–يجب أن تكون المدارس أكبر وأكثر انتشارا، حيث يكثر الفرنسيون بشكل خاص والأوروبيون بشكل عام.

– يجب أن تكون المدارس لأبناء وبنات الفرنسيين أولا، ثم لأبناء الأوروبيين ثانيا، ثم لأبناء الوالدين المعنيين ( أي المؤيدين للمستعمرين ) أخيرا." (الزاوي، 1984)

**1. الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية وإشكالية التسمية:**

الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هو ذلك النص الأدبي الذي كتب خلال الفترة الاستعمارية، وتباينت الآراء حول هذا الأدب وهويته، وقبل ذلك كان قد اختلف في تسميته نتيجة لأشكال لغوية شديدة، وبالتالي ظهرت عدة تسميات في المراجع والوثائق:

– الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي.

– الأدب الجزائري بالكتابة الفرنسية.

– الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

لكن مع التعيينات المختلفة نلاحظ أن هناك قاسم مشترك بينهما وهو انتماء هذه الروايات في محتواها إلى الأدب الجزائري لذلك يمكننا القول أن الأدب الجزائري المكتوبة بالفرنسية هي عمل أدبي لخص تصادم ثقافتين في فترة معينة من تاريخ الجزائر، ثقافة أصيلة، وهي الثقافة العربية التي تجلت في محتويات هذه الروايات (المكان والزمان والشخصيات والأحداث والقضايا التي تم تناولها)، وثقافة غربية تمثلت في طريقة التعبير عن هذه الأشياء وهي اللغة الفرنسية وبذلك يعطينا هذا الأدب دلالات تقربنا من الواقع الذي تشكل فيه، مجسدا ذلك الصدام الحضاري الذي أوصل الكاتب إلى إطار ثقافي مزدوج أسقطه خارج حدود الكلمات، وجعله يفكر بلغة ويكتب بلغة أخرى، ومن هنا نجد أن هذه الفترة الزمنية غير مستقرة للأدب الجزائري، حيث أنتجت أدبا عكس الوضع السائد خاصة على المستوى الثقافي والفكري.

لكن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، رغم ولادته الصعبة فقد كان مرتبطا بالمجتمع الجزائري وتعامل معه كموضوع من خلال معالجة أهم قضاياه (الفقر، الحرمان، الجهل واضطهاد الاستعمار) وكذا محاربة التقاليد والمفاهيم الخاطئة التي عفا عليها الزمن، كما عايش أحداث مهمة، ووقف معه في قضايا حاسمة، وهذا ما جعل الكاتب الجزائري يشدّ بين الماضي والحاضر ويعبر عن آمال وطموحات الشعب الجزائري، ويكرس الكتابة لنصرة القضية الوطنية ونيل الاستقلال، فقد كان للأحداث التي ذكرناها تأثير عميق على الجانب الفني والأدبي في الجزائر، وظهور هذا النوع من الكتابة ليس سوى نتيجة لما عاشه المجتمع الجزائري.

**2. الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية من ظروف النشأة إلى معضلة التعبير:**

من أجل تحديد تاريخ بدايات الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية بدقة من الضروري تتبع مراحل تأثير اللغة الفرنسية على المجتمع الجزائري، وهي النقطة التي جرى حولها النقاش، ومن خلال تتبع هذه المراحل نستجلي عوامل التأثير اللغوي على الإنتاج الأدبي، على اعتبار أنّ اللغة هي الأداة الرئيسية لبناء النص أو الصورة الظاهرة للنص، وفي هذا السياق نجد أبا القاسم سعد الله قد أوجز هذه المراحل كالتالي (سعدالله، 1998):

**1.2 المرحلة الأولى: (1830 – 1880)** بالكاد نجد أي تأثير في مجال الكتابة، لا في المقال ولا في الرواية ولا في غيره حيث كان هناك انشقاق بين الشعبين وإهمال المدرسة والتعليم وبالكاد نجد اسما جزائريا كتب أو ألف عملا بالفرنسية خلال هذه المرحلة، ما وجد من بعض الآثار تمت ترجمته من العربية مثل: "كتاب المرأة" لحمدان خوجة، "مذكرات" بوصوفة والحاج أحمد وعبد العزيز الحداد، وهكذا مرت أكثر من خمسين سنة على الجزائريين اعتبرت سنوات الجهل على مستوى اللغتين العربية والفرنسية.

**2.2 المرحلة الثانية: (1880–1920)**: شهدت ظهور كتاب المقالات والالتماسات والكتيبات وحتى بعض الكتب والدراسات ، لكنها لم تعرف الإنتاج الأدبي أو الإبداعي باللغة الفرنسية ويعود ظهور بعض الكتاب إلى افتتاح المدرسة السلطانية عام 1857 في العاصمة، و1867 في قسنطينة، ومن ثم بداية إنشاء المدارس الابتدائية الخاصة في بعض المناطق، وخاصة في زواوة، وظهور الفرع الخاص لمدرسة المعلمين في بوزريعة، كما تم إنشاء مدارس خاصة في بعض المناطق كالعاصمة، تلمسان، قسنطينة، بداية من عام 1876، وخاصة في عام 1895.. "وعلى كل حال فقد شهدت هذه الفترة ظهور كتابات جزائرية باللغة الفرنسية، وخاصة مقال

ودراسة أحمد بن بريهمات، ومحبوب بن قلفات، وطيب مرسلي ومحمد بن رحال ، وابن علي فخر، وأبو بكر عبد السلام، وإسماعيل حامد." (سعدالله، 1998)

**3.2 المرحلة الثالثة (1920-1950):** أدى التطور السياسي إلى ظهور الأحزاب والجمعيات وظهور الصحف الناطقة باسم هذا الاتجاه أو ذاك ولكن معظم الأسماء التي شاركت في الكتابة بالفرنسية خلال هذه المرحلة ترجع إلى أسماء العائلات التي كانت في الوظيفة الرائدة من قبل أو في التعليم وكانت الصحافة هي المجال الذي شارك فيه الكتاب، بما في ذلك فرحات عباس زناتي الفاسي ( بين الحربين) ، ثم مالك بن نبي، عبد الرحمن بن الحفاف، عمر أوزكان (بعد الحرب العالمية الثانية)، وفي هذه المرحلة ظهرت أيضا محاولات أدبية لأول مرة ربما بدأها أبناء الجيش أو بعض الرواية أطلقها جيل من الكتاب منذ أوائل الخمسينيات ، والكتاب الذين ظهروا بين الحربين هم: محمد ولد الشيخ، وابن الشريف وحسن خوجة شكري، والحاج حمو المعروف بعبد القادر فكري.

**4.2 المرحلة الرابعة (1954 – إلى ما بعد الاستقلال):** لقد تباينت الآراء حول بداية هذه المرحلة فنج الناقدة الروسية " غالينا جوغاشيفلي " مع بداية الحرب التحريرية (1954)، و نجد "جان ديجو" يربط بداية هذه المرحلة بظهور رواية " نجمة " « Nedjma » لكاتب ياسين سنة(1956).(déjeux, 1982) حيث تناول فيها الكاتب حالة الفقر والحرمان التي كان يعاني منه المجتمع الجزائري تحت وطأة الجهل والتقاليد البالية من جهة ، وظلم الاستعمار واستغلاله من جهة أخرى، وقد حملت صفات الأدب.

أما بالنسبة للجيل الذي بدأ منذ أوائل الخمسينيات، فقد حظي باهتمام خلال حرب التحرير في الشرق والغرب، وقد مثله: محمد ديب، كاتب ياسين، مالك حداد، مولد فرعون، ومولد معمري، "ويمكننا أن نضيف إليهم مالك بن نبي في رواية "لبيك" التي كتبت عام 1947 ومصطفى الأشرف في الكتابة الواقعية من خلال مسرحية سياسية كتبها عام 1955 بعنوان" باب الخير". (سعدالله، 1998)

لكن عندما نطرح سؤال التأريخ لبداية الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في الأدب المغاربي في الجزائر وتونس والمغرب ، فإنه من الصعب تحديده بدقة ذلك أنّ "مفهوم الرواية" نفسها والتي على أساسها يصنف العمل في هذا النوع الأدبي، حيث لا يكفي أن يضع المؤلف أو الناشر لفظ رواية دون أن يستوفي النصّ الشروط السردية والجمالية، "وحتى وقت قريب كانت

المسرحية تسمى " رواية " في الجزائر وفي المغرب العربي بشكل عام ، وغالبا تضاف إليها الصفة فيقال "رواية مسرحية" لتجنب اللبس. "(منور، 2008)

**3. موضوعات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية:**

تطور الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية عبر مراحل منذ بداية الحقبة الاستعمارية ومسار الأحداث والتطورات في كل مرحلة كان له انعكاس على البنية الفنية والموضوعية فيه حيث تطور مع تطوره وهذا ما ساهم بشكل كبير في استمراريته ، ولذا يواصل بعض الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية تقديم أعمالهم إلى القراء بهذه اللغة حتى يومنا هذا، مع ما شاب هذا الأدب من نقاشات حول قضية اللغة والانتماء.

وإذا تابعنا مراحل تطور الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، نلاحظ ارتباط الرواية بالواقع الذي نشأت فيه، وفي هذا الصدد يمكن تمييز توجهين من الكتابة:

**1.3 الكتابات الممجدة للاستعمار :**

شكلت هذه الروايات فترة التعايش مع الاستعمار و الاندماج في مجتمع المستوطنين، وكان الجزائريون قد تمكنوا من محاكاة الأدباء الفرنسيين وتقليدهم في البناء الروائي و النسيج النصي وفق التصور الاستعماري، إذ قدمت الإنسان الجزائري في صورة فلكلورية، سياحية، تحكي عن مغامرات تافهة ومبسطة. (بوباكير، 2022)

ارتبطت موضوعاتها بتمجيد المستعمر، حيث تبنت سياسة استعمارية تقوم أساسا على مبدأ العنصرية وارتبطت بالطبقة المعمرة في الفترة ، فكانت لسان حال الاستعمار، وأداة لتمرير أيديولوجياته الخبيثة من أجل القضاء على هوية الشعب ، كانت على الصيغة التالية:

الأنا = الفرنسي = السيد = المتمدن = القوي = المتعلم

الأخر = الجزائري = العبد = المتخلف = الهمجي = البربري

ونلاحظ من خلال هذه الصيغة أن الرواية الاستعمارية عملت على استبدال هوية "الآخر" بهوية جديدة وهي هوية النازح، وارتدائه ثياب الإذلال وهوية أبناء الطريق، وكان الفرنسي حاضرا دائما في هذه الروايات بينما كان الجزائري غائبا تماما، وقد حملت هذه الروايات الإيديولوجيا التي قامت عليها "مدرسة الجزأرة" Les algérianiste التي أسست للأدب الكولونيالي و كان ذلك على يد "روبير راندو Robert Randon " و"لوي برتران Louis Bertrand " والتي كانت تدعو إلى وهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين، والدعوة إلى

الاندماج والزواج المختلط، وعرف هؤلاء الكتاب " بالمتطورين" Les évolués لإيمانهم بفكرة الاندماج مع المجتمع الاستيطاني وكان منهم المعلم، وصاحب الأعمال الحرة، وأبناء الموظفين. (déjeux, 1982)

ومع ما تميزت به هذه الكتابات بإشادة الكتّاب بالثقافة والحضارة الفرنسية إلا أنهم قد تطرقوا إلى مظاهر دخيلة على المجتمع الجزائري كالخمر والحشيش والدعارة والقمار وهي عادات دخيلة على المجتمع الجزائري المسلم، وتناولوا نتائجها السلبية على المجتمع، حيث حملت رواياتهم طابعا أخلاقيا. (منور، 2008)

**2.4 الكتابات ذات البعد الوطني :**

لخصت الرواية الوطنية التجربة الفنية، والإيمان بالقضية الوطنية واستيعابها، وعكست التعاطف مع طموح الجماهير في نيل الحرية والاستقلال ، وهكذا تمكنت من تحديد موقفها من خلال الخبرة الطويلة ، واتخذت موقفا لبدء تحقيق ذلك الطموح ، لذلك عالجت قضية الجزائر والجزائريين ، ورفض الظلم والاستبداد، ورفض الاندماج مع المجتمع الاستيطاني، والمطالبة بالحرية والاستقلال، وكذلك نصرة ما يتعلق بقضايا وشواغل الناس والأزمات التي مروا بها حتى بعد الاستقلال ، وقد تم تلخيص صيغتها على النحو التالي:

الأنا = الجزائري = الوطني = المكافح = المستعمَر = المضطهد

الأخر = الفرنسي = المحتل = الاستغلالي = المستبد = الغريب

ارتبطت هذه الكتابات بالثورة التحريرية، حيث اتخذت أحداثها ووقائعها كموضوع عام حيث الحرب و الدمار، كما فعلت أسيا جبار في رواية "أطفال العالم الجديد" les enfants de nouvelle monde سنة (1962) حيث كتبت عن تدمير الاستعمار للقرى، والقصف بالمدافع والطائرات، ومولود معمري في رواية " العصا والأفيون" L'opium et le bâton سنة (1965)، حيث يصف الحياة الصعبة داخل السجون و المعتقلات، ونجد كاتب ياسين في رواية "المظلع النجمي" le polygone étoilé سنة (1966) الذي تناول فيها تاريخ الجزائر منذ بداية الاستعمار، وروايتي " أصابع النار" les doigts de jour لحسين بوزاهر سنة (1967) و"أسلاك الحياة الشائكة" les barbelés de l'existence لصالح فلاح سنة (1969) فكانت كل هذه الأعمال تصور بطش الاستعمار و بشاعته من جهة، و تعمق الإحساس بالوعي الوطني، ووحدة الأمة. (منور، 2007)

وفي منتصف الستينات، غلبة على الرواية النزعة السياسية الانتقادية، ونشر معظم هذا النوع في فرنسا: روايات محمد ديب التي ظهرت بين (1968 – 1976 ) "رقصة الملك" la danse du roi (1968)، " إله أرض البربر" dieu en barbarie سنة (1970) "معلم الصيد"le maitre du chasse سنة (1973) ، و رواية "المؤذن" muezzin لمراد بوربون سنة (1968) و"التطليق" la répudiation و"ضربة شمس" l'insolation لرشيد بوجدرة سنة (1969) و(1972) على التوالي، و رواية " موت صالح باي" la mort de Saleh baye لنبيل فارس سنة (1980)، وقد تداخلت كل هذه الأعمال في نقطة مشتركة هي النقد الشديد للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، مع اختلاف طريقة كل منها عن الأخرى. (منور، 2007)

لقد ارتبطت الكتابات الوطنية بواقع الجزائريين ، والثورة التحريرية وأحداثها، وحملت على عاتقها التعبير عن القضايا الوطنية، كما جعلت من لغة المستعمر وسيلة لإيصال صوت الشعب إلى الخارج انتصارا للقضية الوطنية، ومحاولة لكشف ممارسات الاستعمار، حيث خاض الأدب الجزائري معركة إعادة التأهيل الذاتي ضد المستعمر وعواقبه من الجهل والمرض والفقر المدقع "لذلك عبر الكاتب الجزائري عن واقعه المتدهور بإعادة تشكيله وفقا لمنظور يصور الرجل الجزائري في بيئة تتميز بالدونية الفاضحة، نتيجة لمعاملة المستعمر، والعدالة المبتورة التي سنها القانون الاستعماري." (ولديوسف، 2002)

**4. الأدب الجزائري المكتوبة باللغة الفرنسية وصراع الهوية والتاريخ:**

ارتبط الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بمأساة اللغة التي كانت فتنة للكثير من الكتاب الجزائريين الذين أصبحوا يتخبطون بين تعريب المجتمع والأفكار والمعتقدات، وسجن الكلمات واللغة التي كانت ملخصا لعقود من الاضطهاد والطمس الثقافي والفكري للمستعمر وبما أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قد عُرفت كظاهرة أدبية متميزة بعد الحرب العالمية الثانية ، والتي شابها الكثير من النقاشات حول مسألة الهوية والأدب الذي تنتمي إليه.

إن النقاش حول الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية خلال الفترة الأولى من نشأته اتخذ طابعا سياسيا وكان بين مؤيد ومعارض لهذا الأدب ، فقد عارضه اليمين الفرنسي واتخذ أمامه موقفا عدائيا، وكان هذا واضحا في موقف "روبرت كامب" تجاه محمد ديب عندما أهان الفرنسيين

بلغتهم، ورد عليه الكاتب التونسي "ألبرت ميمي" "البعض اندهش من سخطهم وتمردهم هل نأمل أن نستمع إلى كلمات رضا أولئك الذين يعانون في شقاق طويل الأمد؟" (الزاوي، 1984)

أما بالنسبة لليسار فقد تم الاحتفال به واعتباره وسيلة لتجذير الثقافة الفرنسية، ووجد شعبية بين القراء الفرنسيين، وهذا ما سارع بظهور العديد من الأعمال الروائية، خاصة خلال الخمسينيات، لتتحول بمرور الوقت إلى التيار الثوري المناضل، حيث ارتبط بالثورة التحريرية والدعوة إلى الاستقلال، "كما نجد أيضا أن موقف الكتاب والنقاد العرب لهذا الأدب قد انقسم قابل لهذا الأدب ورافض له."(khatibi, 1997) فمنهم من رأى ورأى بعضهم أن هذا الأدب ليس جزائريا، ولا تربطه صلة بالثقافة الجزائرية، فهو من بقايا الاستعمار، وأنه كان نتيجة تأثر الكتاب بالحضارة الفرنسية، وكان عبد المالك مرتاض من أبرز الذين وقفوا في هذا الموقف، حيث رأى أنّ الكتاب الجزائريون الذين يكتبون باللغة الفرنسية في الغالب كانوا معجبين بالحضارة الفرنسية بشكل خاص، والحضارة الغربية بشكل عام، يجهلون التاريخ العربي، غير ملمين بسمات الحضارة الإسلامية، وحسب قوله، لا يمكن لهذا الأدب أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر في الجزائر، كما أنه يلعب دورا جادا في تأجيج الثورة التي أجبرت الشعب الجزائري على كسر أغلال الاستعمار، ثم نجده في موقف آخر يُقرّ أن "هناك كتاب بالفرنسية جزائريون ورغم أنهم استخدموا هذه اللغة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم ورؤيتهم للوجود ومذاهبهم في الحياة إلا أن هذه الآراء في حد ذاتها لم تعدم في كثير من عناصرها روح الجزائريين النابضين بالحياة المردين للحرية." (مرتاض، د.ت)

لا شك أن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ارتبط بالوضع الذي كانت تعيشه الجزائر وعبد المالك مرتاض في طرح هذا الرأي بالغ قليلا في الحكم على الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية ونجد أنه ينفي كل صلة بالثقافة الجزائرية والقضية الوطنية على الرغم من أننا إذا أخذنا في الاعتبار الرأي الآخر نجد أنه يعترف أن هذا الأدب يحمل الروح الجزائرية، أو يعبر عن الروح الجزائرية للكاتب.

إنّ المتأمل لبدايات هذا الأدب بجد أنّه يمجّد الاستعمار، ويصوره في أفضل الصور ويتعامل مع الفرنسي كموضوع رئيسي من خلال تسليط الضوء عليه باعتباره سيد ومالك الحق وولي العهد الذي ورث أرض الميعاد عن أسلافه، ولكن خلال التطورات المتتابعة التي شهدتها الجزائر، صحح هذا الأدب المسار يجب اتباعه، حيث ارتبطت بالوعي الوطني للجزائري

فكانت بدايات الحقيقة والالتزام بالقضية الوطنية، يقول الكاتب ياسين: "كانت هناك حرب بيننا وبين فرنسا، ومن يقاتل لا يسأل نفسه هل يعرف ما إذا كانت البندقية التي يستخدمها فرنسية أم ألمانية ، إنها بندقية، إنها أسلحة ، وهي لا تخدم إلا معركته فقط.". (ولديوسف، 2002)

أما محمد ديب في حواره مع محمد قناش ، فيقول: "قوتي في الدفاع عن الناس الذين أنتمي إليهم والتقاليد التي أستمد منها، إذا كنت أعيش في باريس، سأكتب كما يكتب الفرنسيون سأكون أقل شأنا منهم، لغتي هي الفرنسية ، لكن أسلوبي وتعبيراتي جزائرية." (قناش، 1990)

كانت اللغة الفرنسية لغة المستعمر، وقد حلت محل اللغة الأصلية–اللغة العربية– ولكن الملاحظ أنّ كتابات الجزائريين كانت مرتبطة بقوة بالثقافة الجزائرية ونجد هذا واضحا في موضوعاتهم وأسماء شخصياتهم وديكور خيالهم حيث نجد هذا في العديد من الروايات مثل "ثلاثية الجزائر" لمحمد ديب، و"ابن الفقير" لمولود فرعون، و"نجمة" لكاتب ياسين، و"التلميذ والدرس" لمالك حداد، والعديد من الروايات قبل الاستقلال وبعده.

لم يكن عبد المالك مرتاض الوحيد الذي عبّر عن رفضه لهذا النوع من الأدب، بل نجد سيد أحمد النساج يؤيد هذا الموقف حيث يرى بأنّ هذه الكتابات ولدت في الفترة الاستعمارية "وأنّ رؤى الكتاب عبرت عن مواقف غير مقبولة، لذلك لا يمكن اعتبار رواياتهم جزءا من التراث الثقافي العربي الأصيل." (النساج، 1980)

لقد حمل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية صورة الجزائر والجزائري في الواقع، كيف عاش بسذاجته وطموحاته، صور التراث والعادات والتقاليد والحياة البدوية في الريف، ومعاناة العمال ارتبط بأحداث مهمة ومنعطفات في حياة الجزائريين، يقول مولود فرعون: "عندما أقول إنني فرنسي، أسمي نفسي بشيء لا يعترف به الفرنسيون لي، لكنني أتحدث الفرنسية، حصلت على تعليمي في مدرسة فرنسية ، وأعرف بقدر ما يعرف الفرنسي العادي ، إذن من أنا؟ ربما وسط وفرة الصفات الموجودة لا يوجد لقب مخصص لي." (بوباكير، 2022)

أما بخصوص الاتجاه الآخر فمثله بشكل رئيسي الدارسون والمترجمون الذين درسوا هذا الأدب، أو ترجموا بعض النصوص منه إلى اللغة العربية ، ويرى هذا الاتجاه أنّ أدب هؤلاء الكتاب يتناول الأحداث الهامة التي عاشها الشعب الجزائري في تلك الفترة من تاريخه المرير "فكتابات محمد ديب، ومعمري وفرعون وكاتب ياسين في فترة ما قبل الحرب وبعدها أدب يدين بأيديولوجيته للنضال الطبقي والسياسي ومبادئ الحرية والعدالة، ومفاهيم الوطن والأمة." (سعاد،

1957) ، كما يرى جيلالي خلاص أن موضوع الكتابة في الجزائر منذ نشر أول كتاب بالفرنسية كتبه مؤلف جزائري أصبح سؤالا يدور جزئيا حول العلم الجزائري، أيّ أن الجزائري الذي يكتب بالفرنسية يدافع عن الحركة الوطنية أو يدافع عن الوجود الاستعماري، فيقول: "أنا مع كل أدب جزائري مكتوب بالفرنسية أو العربية أو الأمازيغية أو لغات أخرى إذا كان هذا الأدب يحمل الروح الجزائرية." (سعاد، 1957)

أما محمد الملي فقد اتخذ موقفا وسطا بين النقاد والمؤرخين الجزائريين، حيث تحدث عن الروح التي استمدت أصالتها وعمقها من تأثير البيئة التقليدية والأم الجزائرية "مما جعل الكتاب يتخلصون من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية ، فهم يرفضون الاحتلال." (ولديوسف، 2002)

**خاتمة:**

لقد راهن الاستعمار الفرنسي على الكتّاب من أصل أوروبي، حيث عرضوا صورة الجزائر بنظرة زائفة عنصرية، وفوقية تنم عن الشعور بالتفوق العرقي في معتقدهم، ثم كان الرهان على الأدب الذي حاول الاندماج، وكان هذا الأخير منبوذا لا يمثل إلا أصحابه، وكان الأدب الثوري والوطني هو النقطة البيضاء في التاريخ الأسود الذي عاشته الجزائر، وبداية الاتجاه نحو الحرية التي مثلتها كتابات القسم الثاني من طلاب "مدرسة الجزائر" (L'école d'Alger)، فكتّاب الأدب من أصل غير جزائري رغم أنّهم تغنوا بالجزائر، وعاشوا حياتهم فيها، إلا أنّهم لم يعتبروا أنفسهم ولا أدبهم جزائريا، أمّا الأدب الذي كتبه الكتّاب من أصل جزائري فحتى لو كان مكتوبا بالفرنسية إلاّ أن رسالته الحقيقية كانت التعبير عن الشخصية الوطنية بمشاكلها وواقعها وصراعها، فقد عبّر عن ثقافة جزائرية أصيلة ميّزته عن أدب الأوروبيين الذين عاشوا في الجزائر، وكتبوا عنها كأوروبيين ينتمون إلى الحضارة الغربية، ففيه يتم تمييز ملامح البيئة الجزائرية العربية والأمازيغية، ويتجلى ذلك من خلال العديد من المظاهر والأحداث، والمدن والقرى والجبال والغابات والآثار، وكذلك الشخصيات بأسمائها وخصائصها وأخلاقها وردود أفعالها، والقيم الاجتماعية، والأفكار، والمعتقدات، والعواطف، والأخلاق، والتي هي في نهاية الأمر نتيجة طبيعية لتأثيرات البيئة التي خلقت ثقافة الكاتب.

## قائمة المراجع

1. Jean déjeux. (1982). situation de la littérature maghrébine de la langue française. Alger. offise de publications universitaire

2. khatibi, A. (1997). *le roman maghrébin.* Maroc. société marocaine des editeurs réunis.
3. إبراهيم الكيلاني. (1958). *أدباء من الجزائر.* القاهرة، مصر: دار المعارف.
4. أبوالقاسم سعدالله. (1985). *دراسات في الأدب الجزائري.* تونس: الدار التونسية للنشر.
5. أبوالقاسم سعدالله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد 01). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
6. أحمد منور. (2007). *الأدب الجزائري باللسان الفرنسي(نشأته، تطوره، و قضاياه).* الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
7. أحمد منور. (2008). *ملامح أدبية دراسات في الرواية الجزائرية .* الجزائر : دار الساحل للنشر والتوزيع.
8. أمين الزاوي. (1984). *الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بحث في علاقة الإنتاج بالإيديولوجيا من 1830 إلى 1982.*قسم اللغة العربية. كلية الآداب. رسالة ماجيستير. دمشق، سوريا.
9. سيد حامد النساج. (1980). *بانوراما الرواية العربية الحديثة .* مصر: دار المعارف.
10. عبد العزيز بوباكير. (2022). *الأدب الجزائري في مرآة استشراقية.* الجزائر: دار القصبة للنشر.
11. عبد المالك مرتاض. (د.ت). *نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925 – 1954 ).* الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12. محمد حضر سعاد. (1957). *الأدب الجزائري المعاصر.* لبنان: منشورات المكتبة العصرية.
13. محمد قناش. (1990). مع محمد ديب . *مجلة الرواية*(01). العدد 01. 1990. ص35.
14. مصطفى ولديوسف. (2002). *مع محمد ديب في عزلته . مجلة الرواية*(01). العدد 01. 1990. ص21.